الباب الرابع والخمسون: في ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾[1] فسرها بعضهم بالهدية. وقال ﷺ: «تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحناء» وقال ﷺ: «الهدية مشتركة» وقال ﷺ: «من سألكم بالله فأعطوه، ومن استعاذكم فأعيذوه، ومن أهدى إليكم كراعاً فاقبلوه» وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها. وفي الأثر: الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر. ومن الأمثال: إذا قدمت من سفر فأهد لأهلك ولو حجراً. وقال الفضل بن سهل: ما استرضي الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سلبت السخائم[2]، ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا توقى المحذور بمثل الهدية. وأتي فتح الموصلي بهدية وهي خمسون ديناراً فقال: حدّثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال: «من آتاه الله رزقاً من غير مسألة ورده فكأنما رده على الله تعالى». وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر فردّها فقال: يا عمر لم رددت هديتي؟ فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إني سمعتك تقول: خيركم من لم يقبل شيئاً من الناس. فقال: يا عمر إنما كان ذلك ما كان عن ظهر مسألة، فأما إذا إتاك من غير مسألة، فإنما هو رزق ساقه الله إليك. وقالت أم حكيم الخزاعية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تهادوا فإنه يضاعف الحب، ويذهب بغوائل[3] الصدر» ويقال في نشر المهاداة طي المعاداة.

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها

أهدي إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة في يوم واحد: فيلة من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفرس من ملك العرب، وجرهرة من ملك الصين، وإستبرق من ملك الروم، ودرّة من ملك البحر، وجرادة من ملك النمل، وذرة من ملك البعوض، فتأمل ذلك وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد. وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فقال: أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة، ليعلم عز الإسلام، ونعمة الله تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها. قال: ما أعز الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور، قال: وكم في الهدية من ذلك؟ قالوا: مائتا رطل مسكاً، ومائتا فروة سمور. وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله في يوم نيروز في سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية، كان فيها عشرون صينية ذهب، في عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة، في عشرة منها مشام صندل، زنتها نيف وثلاثون رطلاً، وخمس خلع وشي قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية في بعض السنين من جملتها عشرة بازات، منها باز أبلق لم ير مثله، ومائة مهر، وعشرون صندوقاً على عشر بغال فيها طرائف الصين وغرائبه، ومسجد فضة بدرابزين

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٨٦.

(٢) السخائم: الأحقاد.

(٣) غوائل الصدر: أحقاده.

يصلي فيه خمسة عشر إنساناً، ومائة رطل من مسك، ومائة رطل عود هندي، وأربعة آلاف ألف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأوباري ملكة افرنجة وما والاها إلى المكتفي بالله من سنة ثلاث وسبعين ومائتين خمسين سيفاً، وخمسين رمحاً، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب، وعشرين خادماً صقلياً، وعشرين جارية صقلية. وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع، وستة بازات،وسبعة صقور، ومضرب حرير متلّون بجميع الألوان كلون قوس قزح، يتلّون في كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية، إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً، وصفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك، وخرزاً يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة في قدر البغل وآذانها شبه آذان البغل وهي مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها.

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر، كل قنطار منه عشرة آلاف دينار عربية. قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية.

وحكي أن الخيزران جارية المهدي كانت أديبة شاعرة فعزم المهدي على شراء دواء، فأنفذت إليه جام بلور في شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال وكتبت إليه تقول:

إذا خـــرجَ الإمـــامُ مـــن الـــدواءِ ... وأعقـــبَ بـــالســـلامـــةِ والشفـــاءِ
وأصلـــحَ حـــالـــه مـــن بعـــدِ شـــربٍ ... بهـــذا الجـــامِ مـــن هـــذا الطـــلاءِ
فينعـــم للتـــي قـــد أنفـــذَتْـــهُ ... إليـــه بـــزورةٍ بعـــدَ العشـــاءِ

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين.

وأهدى الصابئي إلى عضد الدولة إسطرلاباً في يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهـدى إليـك بنـو الأمـلاكِ واحتفلـوا ... فـي مهـرجـانِ جـديـدٍ أنـت تبليـه
لكـــنّ عبـــدَكَ إبـــراهيـــمَ حيـــن رأى ... سمـــوَّ قـــدرِكَ عـــن شـــيءٍ يـــدانيـــه
لـم يَـرْضَ بـالأرضِ يهـديهـا إليـكَ وقـد ... أهـدى لـك الفلـكَ الأعلـى بمـا فيـه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها: إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلّت كانت أوقع وأنفع. وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثم لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شيء بجمال، أو سمن قال هو أحسن، أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال ذلك، قبل أن أهدي لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية ويذكرها. قال الشاعر:

وإن امـــرؤٌ أهـــدى إلـــيّ صنيعـــةً ... وذكَّـــرنيهـــا مـــرةً للئيـــم

وقال سفيان الثوري: إذا أردت أن تتزوّج فأهد للأم. وكان سفيان يروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر وعنده قوم فذكروا الخبر فقال إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب، أما في ثياب مصر فلا. وكتب الحمدوني إلى جارية اسمها برهان وقد حج مواليها فقال:

حجـوا مـواليـك يـا بـرهـانُ واعتمـروا وقـد أتتـكِ الهـدايـا مـن مـواليـكِ
فـاطـرفينـي بمـا قـد أطـرفـوك بـه ولا تكـن طـرفتـي غيـر المسـاويـكِ
ولسـت أقبـلُ إلا مـا جلـوت بـه ثنيتيـك ومـا ردّدت فـي فيـكِ

وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول:

تفضـل بـالقبـولِ علـيّ إنـي بعثـتُ بمـا يقـلّ العبـدَ عنـدك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز وكتب إليه يقول: هذا يوم جرت فيه العادة بالطاف العبيد للسادة، وقدر الأمير يجلّ عما تحيط به المقدرة، وفي سؤدده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكثر ما جلّ ولا يستقل لعبده ما قل، فإن رأى أن يتطوّل بقبول القليل كتطوّله باهداء الجزيل فعل، وجعل يقول:

رأيـتُ كثيـرَ مـا يهـدى إليكـم قليـلاً فـاقتصـرتُ علـى الـدعـاء

وبلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول: ظالم ولي المظالم فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال: الحمد لله الذي ولي علينا من يعرف حقوقنا. فقيل له: كنت تذمه ثم الآن تمدحه. فقال: حدثني خيثمة عن عبد اللّه أن رسول الله ﷺ قال: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» وقال عبد الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدلّ على عقل كاتبه، والرسول يدلّ على عقل مرسله، والهدية تدلّ على عقل مهديها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.